الالهة والاصنام

لوليم كاتسفليس

* * * * *

الانسان حيوان ديني . عابد متعبد بالطبع . ان لم يعبد الاله عبد الالهة وان لم يعبد الالهة عبد الاصنام . واذا كان منحطاً الى درجة لا يستطيع فيها استنباط الاصنام فتراه يعبد الاوهام او ما يخيفه في الطبيعة وما لا يدركه من عوامل العناصر .

ان ميل الانسان للعبادة او فطرته الدينية هي نتيجة تفوقه على سائر الحيوانات وما يجده في وقته من الفراغ لاعمال الفكرة . فلو كان حيواناً منحطاً دأبه السعي وراء زاده واتقاء الاخطار المحيطة به باستعمال وسائل الدفاع الغريزية لما تسنى له الترفع عن المادة الى ماوراءها والاشتغال بالروحيات بعد ان تجهزت له الماديات . امـا وقد وهبته الطبيعة من الذكاء وقوة الاختراع ما جعله فوق سائر المخلوقات وسخرتها له ليستخدمها لحاجاته بقوة عقله لا بقوة جسده ؛ فلم يعد مضطراً لتكريس حياته كلها للسعي وراء زاده والذود عن صغاره وحياته من هجمات رفيقه الحيوان بل تسنى له الاختلاء بنفسه فاعتاد التفكير واكتشف التحليل فتطرق الى البحث فيما وراء المادة وجعل له من عقله او من مخيلته معبوداً او اكثر . والبرهان على ان الانسان

لولا الفراغ من الوقت الذي هو نتيجة سيادته على سائر الحيوانات لما فكر في الروحيات هو تدرجه فيها · فحين كان ساذجاً غبياً لم تكثر اختراعاته الهجومية والدفاعية لم يكن له فراغ من وقته فلم يكن يعبد شيئاً ، بل ربما سجد للبرق او للرعد مدفوعاً بعامل الرهبة الى ان صار اعرق بما نسميه التمدن فتدرج باستنباط المعبودات من النبات والحيوان لحاجته اليهما ومنفعتهما ثم توصل الى الاصنام ؛ فألى الالهة العديدين والصفات المؤلهة ، فألى الاله الحق

على ان موضوع هذا البحث العبادة المجازية بمعناها النفسي الواسع الشامل · والعامل فيها هو نفس العامل في العبادة الدينية مع اختلاف في المظاهر والنتائج وربما امتزج النوعان في نفس العابد الواحد ·

واني اعني بعبادة الالهة عبادة الافكار وبعبادة الاصنام عبادة التقاليد والاوهام ·

قد يكون الاله الذي ولدته النفس البشرية واقامت له الهياكل وقدمت له القرابين من مال واعمال ودماء اله شر ، وقد يكون اله خير ولكنه على الاطلاق ابن الاعتقاد وحفيد الاخلاص · كونّه الفكر وتمخضت به النفس فجاء قوياً مستبداً مطلق الكلمة لا يقبل في الحكم شريكاً ولا يترك مجالاً للبحث والجدال ·

ولد من النفس فصار آمرها · تكوّن من الفكر ثم تسيطر عليه وجعله آلة بين يديه · اوجده الانسان ثم صار له الانسان عبداً رقاً وتابعاً مطيعاً

اما الاصنام ، وهي تقاليد واوهام ، فمعبودات تثر في كل مظاهرها

وجميع حالاتها . فان لم يك لها من سيئة سوى حوءولها دون سير الفكر الى الامام وتطرقه الى الارقى والافضل لكفى بها آفة للمعرفة والحكمة وبلية على الانسانية . والفرق بين العبادتين كالفرق بين المستنقع القذر الذي لا يتحرك ماوءه النتن وبين النهر المتدفق بمياهه الصافية من المرتفعات الى الاودية فألى البحر العظيم .

شتان بين حالة المتوحش النبي الذي ينحت شبه صورة في صخر او يجبلها من تراب بشكل غليظ ثم يسجد لها ارضاء لغريزة التعبد فيه رغم كونها جماداً مثل فكره حقيرة مثل نفسه وماء المستنقع — وبين المفكر الذي يخلق الفكر فيوءلهها ويحال قوة من قوى الفكر هي الحكمة فيجعل منها مينارفا ، وتطربه ألحان الموسيقى فيجلس يوتارب على كرسيها : ويلذ له الشعر فيختار له ابولو . مثل هذا بعيد عن الوثنية كما يفهمها الناس . وانما هو يعبد العقل بقواه ، والنفس بعواملها ، والقلب بعواطفه . وسواء سماه ابولو او كاليوبي فانما هو يعبد الشعر ، واذا سجد لمينارفا فهو للحكمة يسجد . ذلك لانه قد نزل الى اعماق نفسه وفتش في زوايا عقله فحلل القوى والعواطف والمواهب وألبس كل منها اسماً استعاره من مخيلته الجوادة

اما المتوحش الذي يسجد لصورة جامدة لا تمثل فكراً فهذا يعبد اصنامه الخامل الذي لا يجرأ ان يخالف خرافات ابيه وجده — هذا يعبد اصنامه المستعبد الذليل الذي يرضى ببقاء الحياة ولا يسعى لنبذ النير ، او يقعده الذرهم عن النهوض من حضيض الخمول والعبودية — هذا يعبد اصنامه

الفاتر في العموميات ، المتقاعد عن كل عمل مفيد لنمو العقل البشري ، القانع من الدنيا بقدح يرشفه وفخذ يأكله وآخر يلمسه — هذا يعبد اصنـامه ·

المتقيد بقيود الاعصر الغابرة وسلاسل التقاليد البالية ، الذي لا يقدم عَلَى عمل لم يعمله سواه من قبله ولا يستعمل كلمة لم تمضغها افواه العصور الذي لا يحارب الا لابقاء القديم عَلَى قدمه ولا يناضل الا لحفظ حرمة اضحاب الخرافات القديمة ولا يمشي الا القهقرى — هذا يعبد اصنامه ·

لنترك الاصنام في اوكارها منتقلين الى هياكل الالهة ولنجعل دخولنا اليها بورع واحترام فالمقام جليل · وسواء كانت الهتنا ام لم تكن ، سواء كانت صالحة او فاسدة في اعتقادنا ، فهي من صلب الاخلاص ورحم العقيدة الحقيقية فاحترامها فرض عَلَى المفكرين ·

هاكم الوطنية مثلاً · الهة سجدت لها الاقوام من قدم وقدمت عَلَى مذابحها قرابين لو جمعت لتألف منها عالم بل عوالم · برزت في نفوس البشر لما بدأ الانسان يخرج من العبودية كما تخرج الفراشة من شرنقتها · لم تكُ معروفة في حالة الانسان الفطرية قبل ان صارت له جامعة اي في عصر البيت والحي والقبيلة · ولم تكُ معروفة في الامم التي كثرت عبيدها وقلّت حكامها لان حقوق الفرد كانت لا تزال مجهولة · بل ابتدأت تتجلى عند ظهور حقوق الفرد وحريته في الهيئة الاجتماعية · تجسدت في مجد اثينا ونظام سبارتا وعظمة رومية · وتجسمت في ثورة اميركا وعاصفة فرنسا ·

كهنتها الوف وعبادها ربوات وضحاياها لا تحصى بعد . من اجلها كان بريكليس ينظم ويناضل ويرضى بالاضطهاد ، وملينياد يحارب ، واريسطو وافلاطون يعلمان ، وديموستينس يندد بفيليب غير مبالٍ بنفسه ، والاسكندر يحاول ان يهبها العالم كما يقدم الحبيب اضمامة ازهار الى محبوبته ، وبروتوس يقدم لها قرباناً من دم قلبه مضحياً لها اعز اصدقائه كما ضحى لها جدهُ بروتوس الاول ولديه من قبله ؛ وكاتون ينتحر في سبيلها ، ورشليو يدمر البلاد ليقيم لها قصراً اسمه الوحدة الوطنية ، وواشنطون ورفاقه يجوبون البلاد ابطالاً عراة لينقذوها من مخالب الغريب ؛ وروبسبيار ودنتون ورفاقهما يجعلون لها بحيرة من الدماء وسطها فرنسا ودائرتها اطراف اوربا لتغتسل فيها فتنظف من اوساخها وتبرأ من علاتها فتخرج منها شابة رائعة الجمال

يا لها من ربة ظلوم ؛ جائعة لا تأكل الا لحوم البشر ، عطشانة لا ترتوي الا من دمائهم ؛ وهم مع ذلك عبدوها ولا يزالون عَلَى عبادتهم وعهدهم

والالهة كثيرة ؛ بل كل عاطفة في النفس القوية اله . وكل فكر مخصب كبير في العقل الراجح والقلب الحازم اله .

الرسالة لصاحبها اذا أُمِّن ، والدعوة للداعي اذا صدق ، والوعظة للواعظ اذا اخلص ، تجعل لكل منهم من نفسه واعتقاده الهاً .

والا فما الذي حمل بطرس الناسك عَلَى دعوته وجعله يجوب البلاد محرضاً مستصرخاً ؟ لو لم تكن عقيدته صارت « الهاً » فيه لما وجد صوته صدى في النفوس ولما تبعه الالوف الى الحتوف .

او ليس الاله ابن الايمان الذي كان في نفوس الشهداء هو الذي جعلهم يستصغرون الموت في سبيل ايمانهم .

من من القريشيين او العرب او العجم كان يصغي ويرى من محمد لولا الاله الذي كان في نفس الرسول ؟ او ما ترى ان ذلك الاله سكن ايضاً نفوس الراشدين ورجالهم فصاروا به انصاف آلهة اسهروا العالم نظيرهم بالعدل والاخلاص والتفاني ؟

اله شهداء العلم ، واله القائلين بالحرية في وجه الظلم والمستميتين عند قولهم ، واله المضطهدين لمذهب والمعذبين لقول والمقتولين لفكر ، واله شهداء النصارى وشهداء الاسلام — ممن كانوا يقتلون صبراً لرفضهم لعن علي او الاقرار بخلق القرآن الى الذين يقتلون ببنادق الجند وهم يصيحون « فلتحي الحرية » — كل هذه الهة لولاها لما بلغ العالم شأوه الحاضر . فاسجدوا لها سواء كنتم من عبادها او لم تكونوا لان رقيكم كان منها وبها

هي من اولاد الاحلام لا الاوهام . والاحلام امهات الافكار والاعمال . هي بنات قوى العقل والعواطف والشعور فليكن لكل منا الهاً اذا اردنا التقدم ولنحطم الاصنام فالاصنام سجون العقول .